يناوش عزرائيل ويرصد علاقة المصريين بالموت:

6 يوليو 2008

أحمد الجمال

«ما يقعد على المزاود إلا شر البقر»!

عرفنا الأبدية ولم نخترعها أو نكتشفها، فكانت معارف أسلافنا المصريين الأوائل حول العالم الآخر وسماعياته وغيبياته.. وكانت المعابد والأهرامات والمسلات والجبانات والمتون المكتوبة والقرابين والحكم والأمثال التى انصرفت كلها إلى الموت والانتقال والبرزخ والبعث والحشر والحساب والجزاء بالثواب فى جنات النعيم أو بالعقاب فى منازل الجحيم.. غير أننا لم نقتصر على ذلك وإنما كان لنا ـ كالعادة فى كل تفاصيل حياتنا ـ وجه آخر للتواصل مع الظاهرة هو السخرية اللاذعة والاستهانة.. والتنكيل بالموت قبل أن ينكل الموت بنا! نفقد عزيزًا أو رذيلاً ونمعن فى الحزن وفى غض الطرف عن مساوئه، ونستحلب التأثر لينطبع على سحناتنا، بل وكنا فى وقت من الأوقات نستأجر من يكثف لنا لحظة الحزن بأجر مدفوع، وكانت تأتى الندابات إلى الدور قبيل غسل الجثمان ويبدأن فى "العديد" المؤثر المضنى وتتصاعد وتائر "التعديد" حتى إذا خرج الجثمان محمولاً دوى "الصويت" صراخا عاليا ممزوجا بألقاب الفقيد حسب مكانته فى سلم القربى.. فهو سبع وجمل وعمود الخيمة إذا كان زوجا، وهو الضنى والقلب والحشا والكبد وحبة العين إذا كان ابنا، وهلم جرا.. وتمعن الندابة فى تكثيف اللحظة حتى تشتهر ويعلو أجرها، وربما كانت وهى فى أوج تكثيف لحظة الحزن للآخرين قادمة من ذروة لحظة بهجة تخصها وذويها! نسخر من الموت حتى بعد أن عرفنا التوحيد السماوى ودخلنا فى دين الله أفواجًا، ونبدأ بالتعرض لعزرائيل الذى وقر فى أذهاننا أنه الملاك الموكل بقبض الأرواح، ونتخيله إذا ما ازدادت جرعة انتقال أحباء أو أقرباء أو أصدقاء من جيل واحد أو من مهنة واحدة وكأنه مندوب من جهة ما جاء ليطلب دفعة جديدة بلغة "التجنيد العسكري".. ثم نواصل خفية فى محاولة للتخفيف من وطأة الحزن أن نتندر على القادمين للعزاء، أو على من نظن أنهم كانوا هم الأولى بالانتقال، فنردد كلاما من قبيل "ما يقعد على المزاود إلا شر البقر"! أو نتندر على بعضنا البعض فيمن سيسبق ومن سيبقى وما إذا كنا سنلتقى فى عدن أو فى سقر، أو من الذى سيتدفأ الآخر على جسده المنصهر فى اللظي! نعم نزل عزرائيل قاصدا طائفة المؤرخين والأدباء وأساتذة الجامعة.. وفى غضون شهور قليلة فقدت ـ ومعى المنتمون للطائفة ـ كلا من الأساتذة الدكاترة جمال زكريا قاسم ويونان لبيب رزق ورؤوف عباس حامد.. وفقد أدباء مصر ومثقفوها الأديب الناقد سامى خشبة، وعند كتابتى لهذه السطور كان قد تم دفن جثمان أستاذ الأدب الإنجليزى والمثقف الموسوعى والناشط السياسى الدكتور عبدالوهاب المسيرى.. هكذا دفعة واحدة ليفتك بنا الحزن ويستبد الأسى ونعلن أن بلدنا قليل البخت وسيئ الحظ وأن عزرائيل كف عن الالتفات إلى الجانب الآخر الذى نعتقد أنه من وراء قلة بخت وسوء حظ المحروسة!.. أى المؤبدين فى كراسى الحكم. لقد توجهت للعزاء فى الصديق العزيز والأستاذ المتميز رؤوف عباس، وعند باب قاعة مجمع الأرقم بن أبى الأرقم فى مدينة نصر صافحت متقبلى العزاء، وكان منهم زملاء الدكتور رؤوف، وقد كنت يوما ما زميلا لهم فى سيمنار الدراسات العليا فى آداب عين شمس.. وصافحت وعانقت الدكتور على بركات المؤرخ المتمكن، وكذلك صافحت وعانقت الدكتور عاصم الدسوقى الغنى عن التعريف بعلمه وشخصيته وصلابة مواقفه المبدئية، ونفس الشيء مع الدكتور عبادة كحيلة، والدكتور عبدالمنعم الجميعى.. وفى القاعة تجاورت مع العديد من أساتذة الجامعة من كل التخصصات، ومن الشخصيات العامة، ولكنى هنا أخص المؤرخين فقد رأيت وصافحت وعانقت بعضا من الزملاء والأصدقاء الذين لم أرهم منذ سنين طويلة: الدكتور فتحى أبو سيف زميلى ودفعتى الذى تأخرت عنه فى التخرج سنة دراسية وهو من أهم مؤرخى العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ فى آداب عين شمس، والدكتور أحمد زكريا الشلق أستاذ التاريخ الحديث ووكيل الكلية، والدكتور أبو اليسر

عبدالعظيم أستاذ التاريخ القديم زميلى وصديقى وأول الدفعة التى تخرجت معها، والدكتور عادل غنيم، والدكتور إبراهيم الجندى، وكلاهما من الأساتذة المتميزين الأفاضل، ثم كانت المفاجأة بمن يناديني بصوته المميز فاندفعت تجاهه بكل شوق ومحبة.. إنه الأستاذ الدكتور محمود عودة أستاذ الاجتماع الأشهر ورئيس الجامعة الأسبق.. ولو أردت أن أمضى فى عد من حضروا ممن أعرفهم أو شرفت بمعرفتهم فلن تكفى المساحة! المهم أننى سرحت فى الركن الذى احتوانى وتذكرت شريطا طويلا مسرحه قسم التاريخ بآداب عين شمس.. فيه رأيت وجوها وسمعت أصواتا واستعدت مشاهد ومواقف وحوارات مع أساتذتى المؤرخين، ورصدت أنه بعد رحيل أستاذنا وشيخنا جميعنا الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم بقى أستاذنا الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى ومن حوله كوكبة من الأساتذة عبارة عن دفعات متوالية فى التخرج والحصول على الدكتوراه.. كانت هناك الكوكبة التى تضم عبدالعزيز نوار، وجمال زكريا قاسم، ويونان لبيب رزق، وجاد محمد طه.. ومن بعدهم اتسعت الدائرة لتضم الراحل عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، وعبدالخالق لاشين، وعلى بركات، وعلى شلبى، ومحمد فريد حشيش، وغيرهم ممن أذكر أسماءهم الأولى ولا أذكر الاسم كاملا، وقد عاصرت هذه الدفعة فى السيمنار الذى كان مهيبا بحضرة شيخه عزت عبدالكريم، وحافلا بالتخصص العلمى فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر وإن قلت فيه جرعات الثقافة بوجه عام! كان الشريط حافلا، ومن لقطاته المحزنة التى لا تزال تحز فى نفسى مشهد قاعة تقبل العزاء فى المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى أستاذ الأساتذة والعالم المتمكن والحكاء خفيف الظل حاضر البديهة!.. فقد كنا عددا لا يتجاوز أصابع اليدين، ولذلك عندما تصادف وكنت متحدثا فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عقب ذلك المشهد المؤسى وجهت حديثى للحضور من المؤرخين ودارسى التاريخ وقلت إننى شاهدت بأم عينى وأبيها أيضا عشرات من الوجوه الجالسة والأخرى الغائبة ممن كانوا يتسولون دقيقة من وقت أحمد عبدالرحيم مصطفى لإطلاعه على جملة هنا أو فقرة هناك فى رسائلهم للماجستير والدكتوراه، وأنه لو كان الرجل زعيما لعصابة أو تاجرا فى سوق الخضار لكان من حوله أكثر وفاء من حضرات حملة الماجستير والدكتوراه تحت إشرافه أو رعايته. تذكرت جلسات ما بعد السيمنار وكانت تتم فى مقهى "متاتيا" القديم أمام المسرح القومى الحالى، والذى كان يستمد قيمته التاريخية من تردد الأفغانى ومحمد عبده عليه فى زمنيهما، وكان من معالمه على زماننا رجل يدور بسلة من الخوص ممتلئة بـ "ساندويتشات الفلافل" ويمتع زبائنه بجرعة "مياه السلطة" لاذعة الطعم وكان يسميها ويسمونها "الويسكي"، ومع "متاتيا" كنا نجلس فى الطابق الثانى من فندق "وندسور" حيث عم أحمد وعم عبده بالقفاطين القطنية المقلمة والأحزمة الحمراء العريضة والطرابيش وكان عم أحمد يزك بإحدى ساقيه، ولطالما اختلست كميات من الفول السودانى لحساب أستاذى الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى الذى كان يحب السودانى ولكن ذراعه القصيرة وأستاذيته لا تمكنانه من اقتناص معظم ما فى الصحن فيومئ لى وأتولى المهمة! وفى "وندسور"، وأيضا كازينو "كروب" بالقرب من كوبرى الجامعة كانت اللقاءات الأولى التى صرت بها من دراويش الراحل الجميل الأستاذ الدكتور محمد أحمد أنيس الشقيق الأكبر للعالم الفذ ورجل المبادئ اللامع الأستاذ الدكتور عبدالعظيم أنيس شفاه الله وأمد فى عمره، وعلى ذلك فقد كنت من تلاميذ أحمد عزت عبدالكريم ومن تلاميذ ومحبى وأصدقاء أحمد عبدالرحيم مصطفى، ثم أضفت لذلك دروشتى لمحمد أنيس الذى هو من فرع آخر من فروع الطائفة، لم تخل الأمور من منافسة بينه وبين فرعنا فى عين شمس! وامتدت معرفتى واقترابى من الدكتور أنيس سنين طويلة إلا أنها انتهت نهاية غير ظريفة، ولذلك قصة تطول جرت بعض وقائعها فى دولة الإمارات عندما كنت أعمل هناك فى دار الخليج وكان يعمل هو فى أحد المراكز البحثية. وهاهو موكب الحياة يمضى بنا جميعا لا تنفصم مراحله ولا تنقطع، مثلما هو التاريخ الذى هو الماضى والحاضر والمستقبل فى منظومة واحدة غير منقطعة ولا منفصمة، ومع ذلك فإن فقد الأحبة صعب ومؤلم، وإدراك أن بلدنا قليل البخت سيئ الحظ عندما يخطف عزرائيل أعز وأقدر وأخلص بنيه، أكثر صعوبة وأشد ألما، ذلك أن شر البقر مازال مستبدا بمزاود الحكم!

http://www.al-araby.com/docs/1115/article2142177963.html